الفصل الثالث

"وليم جيمس"

اولاً : الفلسفة الإجتماعية

يعتبر « رويس » « وليم جيمس » بالرغم من شهرته كفيلسوف براجماتى ، ومدافع عن الروح الفردية والخبرة الشخصية ، فيلسوفا مثالياً فى أعماله ، ومعبراً عن الروح الدينية والإجتماعية لمجتمعه . والواقع أن هناك شرطين أساسين لكسب الفيلسوف قيمة فى عالم الأفكار الفلسفية ، الأول أن يكون فكرة نابعاً من خبرته الشخصية ، ومستقلاً تماما فى فكرة ، أى يفكر من أجل نفسه ، والثانى أن يكون منتبهاً ومفسرا للأفكار الفلسفية المميزة للمرحلة التى يحيا بها ، من مراحل الحياة الروحية لمجتمعه . وينطبق هذان الشرطان للفكر الفلسفى الحقيقى ، على ثلاثة من الفلاسفة الأمريكين ، وهم « إدوارد » و « أمرسون » و « وليم جيمس » . فكان فكر ثلاثتهم نابعا من خبرة وتجربة شخصية بحته ، وفى نفس الوقت جاء معبراً عن الفكر القومى للمجتمع الأمريكى ، ومجسدا لمراحل تطور وتشكيل الحياة والروح الدينية الأمريكية . فلقد وضع « إدوارد » بعض الأفكار التى ساعدت على تشكيل الحياة الدينية المبكرة للمجتمع الأمريكى ، حقيقة كانت أفكاره الدينية تقليدية إلى حد ما ، إلا أنه قد استطاع التوصل لمجموعة من الأفكار العامة تجاه الله والإنسان ، من خلال تجربته الدينية الشخصية والخاصة ، وإكتشف من خلال ملاحظته لتجربته الخاصة ، مجموعة من الأفكار ، كان لا يمكن الوصول إليها من خلال القراءات الفلسفية البحته ، والنظريات الفلسفية المجردة . فتمكن عند دفاعه عن العقيدة الدينية ، من إكتساب نظرة شاملة للمشكلات الدينية ، مكنته من تحقيق التصالح بين كثير من التناقضات المأساوية للعالم الروحى ، وبالتالى جاءت إهتماماته ، أكبر وأشمل من كونها مجرد دراسة للموضوع اللاهوتى ، الذى قام بدراسته ، لم يتحدث كمفكر نظرى ، وإنما كمن يهتم ويعقل الإهتمامات والدوافع الرئيسية للحياه الدينية الأمريكية ، وذلك يعد من الناحية التاريخية ، أول الفلاسفة الوطنين الأمريكين (١).

---

(١) J. Royce : William James and Philosophy of LiFe (1911), Macmillan, Co.1912, New York, p. 4.

ويعتبر « إمرسون » ثانى الفلاسفة الذين جاء فكرهم تجسيداً لمرحلة من مراحل فكر وروح مجتمعهم ، فوجدت الأفكار الامريكية كيانها من خلال آرائه وأفكاره . حقيقة كان دارساً للأفكار الفلسفية العامة ، فجاءت أفكاره من حيث النشأة التاريخية منتمية للفكر اليونانى والحضارة الأوربية الحديثة ، ولكنه تمكن من مزج هذه الأفكار بخبرته الشخصية وإعادة تشكيلها ، فأبدع من خلال تجربته الشخصية ، وجاء فكره معبراً عن الروح الأمريكية الأصيلة ، فدرس وفكر وتحدث بلغة أمريكية . ومع بداية القـرن العـشرين ، ظهر « وليم جيمس » ممثلاً للفلسفة الأمريكية . فلقد فكر من خلال تجربته الشخصية ، وبإستقلال تام ، فجاءت أفكاره إبداعاً ذاتياً ناجحا ، وفى نفس الوقت معبرة عن الأفكار الفلسفية المميزة لمرحلة من مراحل الحياة الروحية للشعب الأمريكى . حقيقة تأثر بالأفكار الفلسفية العامة ، وبتاريخ الفكر الفلسفى ، ولكنه أعاد تأويل وتفسير هذه الأفـكار الفلسفية ، بطريقته الخاصة ؛ ومزج كل ما قرأه من فكر أجنبى بتجربته الشخصية ، فكان لا يصدر حكماً أو يؤكد فكرة إلا من خلالها ، وبالرغم من ذلك ، ظهر من بين أحكامه وأفكاره ، ما يعد تعبيراً عن خصائص وصفات الثقافة الأمريكية فى ذلك الفترة . فجاء فكرة تقليدياً ، بالرغم من معارضته لما سماة الإتجاهات التقليدية للفلسفة ، وإستحق اعتباره فيلسوفاً تقليدياً أمريكياً ، إلى جانب كل من « إدوارد » و« إمرسون » (١) .

ومن الواضح أن « رويس » يعتبر « وليم جيمس » الممثل الوحيد للروح الأمريكية الإجتماعية من بين رواد الفلسفة البراجماتية ، وأهمل فكر « جون ديوى » و « شارلزبيرس » بالرغم من دورهما فى تأسيس الفلسفة البراجماتية ، وتأثره ببعض أرائهم فى صلب فلسفته ، إلى جانب ماقد تأثر به من فكر « وليم جيمس » . كذلك من الواضح تفسيره لفلسفة « وليم جيمس » من منظور « هيجلى » ، فإعتبر فكره تجسيداً لروح الثقافة الأمريكية ، بالرغم من تمسك « جيمس » بالخبره الفردية الذاتية ، ورفضه لكل فكر مثالى ، وبذلك جاء فكر « جيمس » تجسيداً لأفكار مجتمعه دون وعى مغه ، وما هو إلا إحدى تعبيرات المطلق عن نفسه ، طالما أن المطلق يظهر فى المجتمعات والأفراد . ويطبق « رويس »

---

(١) Ibid : p. 12.

النهج الإجتماعى الذى طبقة فى دراسة المثالية الألمانية ، فلا يمكن تحقيق فهم حقيقى لفكر فيلسوف بمعزل عن التيارات الفكرية والإجتماعية السائدة فى عصره . فلا يكفى لمعرفة الوضع التاريخى الذى إحتله « وليم جيمس » بين الفلاسفة ، دراسة آرائه الذاتية فقط ، وإنما لابد من دراسة الإهتمامات والإتجاهات الفكرية ، التى كانت سائدة فى المجتمع الأمريكى ، وفى الفكر العالمى فى تلك الفترة .

ولقد بدأ « وليم جيمس » عمله فى السبعينيات من القرن التاسع عشر . وكان سائداً فى تلك الفترة حركتان للفكر ، تهتم الأولى بنظرية التطور والثانية بعلم النفس . ولقد مرت المذاهب الدارسة لنظرية التطور بمرحلتين ، إرتبطت المرحلة الأولى « بداروين » « وسبنسر » وشكلت الفترة العاصفة للداروينية ، وإهتمت بإثبات صحة النظرية ، وأعقبتها المرحلة الثانية التى إهتمت بتوسيع وتعميق الأفكار التطورية الجديدة ، ولم يهتم ممثلوا هذه المرحلة بالدفاع عن الأفكار الأساسية لنظرية التطور ، وقبلوا مفهموم الأصل الطبيعى للكائنات ، وإستمرارية عملية التطور ، وركزوا إهتمامهم على دراسة عوامل التطور ، وتطبيق الأفكار التطورية على ميادين جديدة ، وفسر الفلاسفة منهم المفاهيم الفلسفية التقليدية فى ضوء نظرية التطور . ويعد « وليم جيمس » أحد ممثلى هذه المرحلة ، من الحركة التطورية ، فلم يدافع عن الأفكار الرئيسية لنظرية التطور ، وإنما إهتم بتفسيرها ، وتطبيقها فى مجالات متعددة (١) .

وأما بالنسبة الحركة الفكرية الثانية ، فلقد كانت فترة « وليم جيمس » فترة نهضة فى علم النفس الجديد . حيث ظهرت إهتمامات جديدة ، إلى جانب الدراسات الفنية النفسية المتخصصة ، والخاصة بدراسة العقل الإنسانى والحيوانى . وبات علم النفس جزءاً من حركة فكرية أكثر إتساعاً ، شملت كل ما هو حيوى فى المدنية الحديثة ، وإرتبطت بالأكثر بالصور الحديثة للمذاهب القومية والعالمية والإجتماعية والفردية . فلقد أصبحت الحياة الإنسانية أكثر تعقيداً بظهور مشاكل فردية وإجتماعية جديدة ، وسعى الإنسان يبحث عن

---

(١) Ibid : p. 14.

وسائل جديدة ، تعنيه على فهم أعمق لنفسه وللآخرين . فبدأت تظهر العلوم والفنون التى تساعده على تحقيق هدفه ، وكان علم النفس ، أحد هذه العلوم . وبذلك أصبحت الدراسات النفسية ، تهتم بما هو أعمق وأبعد من مجرد إهتمام مجموعة من العلماء المتخصصين . فبدأ ظهور بعض نماذج هذه الحركة الفكرية الواسعة ، فى الفترة التى بدأ فيها « وليم جيمس » عمله ، وعكست إسهاماته فى علم النفس روح هذه الحركة ، فإن كان قد ألف كتابه فى « علم النفس »، فلقد كتب « الأنساق المختلفة للخبرة الدينية » (١) وبذلك يعد « وليم جيمس » مساهماً فى الحركة الفكرية العالمية فى عصره ، فساهم بدوربارز فى الحركة النفسية الجديدة ، وشارك فى توسيع وتعميق الأفكار التطورية الجديدة .

وأما ما جعل من « وليم جيمس » بالرغم من إهتمامه بالفكر العالمى المعاصر فيلسوفاً أمريكيا ، ومعبراً عن الإتجاهات القومية الأمريكية فى تلك الفترة ، إنتمائه للحركة الفكرية التى نتجت فى أعقاب الحرب الأهلية الأمريكية ، والتى اتجهت إلى توسيع وإثراء الحياة الإجتماعية الأمريكية . فقد إتجهت الأمة الأمريكية فى تلك الفترة ، إلى تعمير مناطق جديدة ، واهتمت بالنمو الاقتصادى والهجرات والتعليم والتربية . وحاولت تجديد نفسها ومثلها العليا ونظامها الأخلاقى . فدرس « جيمس » التناقضات بين المشاكل العملية للمدنية الأمريكية ، وحركة الفكر لعالمى فى تلك الفترة ، خاصة حركة التطور وعلم النفس الجديد . والحقيقة إنه إذا تم النظر للنتائج التى توصل إليها « جيمس » فى تفسيره لمشكلات الشعب الأمريكي ، لا يمكن القول بإنه تفسيره ، قد جاء متفقاً مع إهتمامه بمسائل الفكر التطورى وعلم النفس . فلم يكن « وليم جيمس » نفسه واعياً بأنه ممثل للفلسفة الأمريكية ، ولم يكن طموحاً لهذا الوضع . كان يعمل بجد وإخلاص فى حل المشاكل الإنسانية التى يهتم بها ، ويدرك قيمتها لخدمة النوع الإنسانى عامة ، ولكنه ، كان فى نفس الوقت يقدس المجسم، الواقعى والجزئى والفردى . لم يشر فى عمله لأى كيان إجتماعى معين ، أو لإى موضوع يخص الحياة الأمريكية مباشرة ، أو ينظر لها ككيان إجتماعى ، فكان لا يتحدث عن قضايا

---

(١) Ibid : p. 16.

نظرية مجردة ، أو عن حركات إجتماعية عامة ، إذا بدا له العالم مكوناً من أشياء فرادى من البشر والأحداث والتجارب والأفعال . وبالرغم من ذلك ظهرت كثير من الأمور والدوافع الإجتماعية ، التى عبر عنها « وليم جيمس » دون دراية منه . وإذا تم النظر لفلسفة « جيمس » من الخارج ، يمكن إكتشاف مساهماته وأدواره الإجتماعية ، التى لم يكن مدركاً لها (١) .

ثانياً : الفلسفة الدينية :

كانت الأمة الأمريكية قد فقدت منذ الحرب الأهلية الثقة فى الصور والنماذج القديمة لحياتها الدينية . وسعت للبحث عن تجسدات لوعى دينى جديد ، وعن عقيدة جديدة ، لا تتناقض مع نظرة الإنسان الحديثة للحياة . وتمثل دور « جيمس » ، كعالم نفسى وفيلسوف ، فى وضع تعبير جديد لهذه الروح الدينية المضطربة . فوضح فى كتابة « أنساق الخبرة الدينية » النماذج المختلفة للتجارب الدينية ، ووضع فرضاً لمعنى وقيمة العملية الدينية كلها ، وجاء الفرض متسقاً مع الإتجاهات الحديثة فى علم النفس ومع فلسفة الحياة ، ومتصلاً بكل المسائل الأساسية للحياة الإنسانية . والحقيقة توضيح « وليم جيمس » لقيمة التجربة الدينية الفردية ، بإعتبارها المحور الرئيسى للدين ، قد أثر على كثير من علماء النفس والفلاسفة ، فبدأ علماء النفس ينظرون للدين وتطوره نظره جديدة ، وإتجه الكثيرون من حملة لواء المذهب التطورى إلى إعادة نظرتهم للدين ، بل لقد قام البعض بكتابة لا هوت مسيحى جديد ، مؤسساً على مذهب « وليم جيمس » وإمتد التبشير بهذا الإنجيل الجديد إلى بلاد كثيرة بل وحاز على شرف لعنة الكنيسة الرسمية (٢) .

حقيقة قد تبدوا آراء « وليم جيمس » الدينية كما لو أنه يعطى دوراً ثانويا للدين بالمقارنة بالرغبات الإنسانية التى أكد على أهميتها ، إلا أنه كان مؤمنا ، بأن الرغبات الفردية ، هى الوسائل التى من خلالها تظهر وتتجلى حقيقة العالم فوق الإنسانى . فجاء هذا النمط من الإيمان الحماس النشيط ، متسقاً مع الروح الأمريكية فى تلك الفترة ، ومعبراً عن روح

---

(١) Ibid : p. 19.

(٢) Ibid : p. 22.

المغامر والباحث عن الذهب ، وينقلها إلى العالم الميتافيزيقى الدينى ، حيث تستقر الروح وتشعر بالطمأنينة . وتعد التجربة الشخصية المرشد الوحيد لهذا العالم ، يحتاج الإنسان إليها ، ولا يستطيع أن ينجح فى مغامراته ، إلا إذا كان راغباً فى الحياة هناك . فعلى الإنسان أن يكون مجرباً وشجاعاً ، ولا يتأثر بأى مفاهيم نظرية ، حتى وإن كانت علميه ، ولا يسمح بوجود أى قيود قد تحد الخبرة ، فالخبرة الشخصية هى القادرة على كشف ثراء الروح وملكاتها .

حقيقة قد إعتمد « وليم جيمس » فى آرائه الدينية على الخبرات الأدبية وآداب الشعوب الأجنبية ، إلا أن روح « كتابة أنساق الخبرة الدينية » ، وقد كان لها أثر كبير فى تشكيل العقائد الدينية للمجتمع الأمريكى . نظر للخبرة الدينية نظرة ديمقراطية متمردة ، ولم يعترف بأى صورة تقليدية للوحى ، ولا مكان عنده للكنيسة الرسمية ، وأن كان لم يأخذ منها موقف العداء النظرى ، الذى وقفه المفكرون الأوربيون المتمردون تجاهها . رأى أن المؤسسات الدينية الرسمية فى طريقها إلى الزوال ، تاركة المجال للخبرات الدينية الفردية . فرفض المظاهر الإجتماعية وأكد على الخبرة الفردية الدينية (١) . حقيقة أن فلسفة «وليم جيمس » ، قد لا تعد فلسفة دينية متكاملة ، لأنها تصف تجارب فردية عشوائية متنوعة ولكن اذا نظر إليها نظرة تأملية واسعة ، فأنها تؤتى ثمارها ، ولا يتم إكتشاف الروح برفض التجارب العشوائية التى وضعها « جيمس » وإنما بالتأمل فيها وفى أعماقها ، حتى يظهر النور والنظام فيها ، والحقيقة لا يمكن لفيلسوف أن يصف مثل وفى مثل هذه التجارب ، يمثل هذا الحماس «اللاتقليدى » وبهذه الروح الديمقراطية المتحررة من كل الصور الدينية التقليدية ، ومن كل تفكير نظرى مجرد ، إلا إذا كان فيلسوفاً أمريكياً . ولم يعبر كتاب أفضل من كتاب « الإنساق المختلفة للخبرات الدينية »، عن خصائص الحركة والروح الدينية التى يسعى إليها المجتمع الأمريكى . إذ لقد وجدت الروح العميقة للحياة الدينية الأمريكى ، تعبيراتها المتنوعة والمتعددة فى هذا الكتاب (٢) .

---

(١) Ibid : p. 23.

(٢) Ibid : p. 24.

ومن الواضح أن « رويس » يعتبر الفيلسوف الحقيقى ، هو القادر على المزج بين الخبرة الشخصية ، وتيارات الفكر العالمى ، وتأتى فلسفته فى نفس الوقت معبرة عن روح مجتمعه . وكأن الروح الإجتماعية هى المخزون النفسى لكل فيلسوف . فيرى أن « جيمس » قد عبر فى فلسفته عن الروح الدينية للمجتمع الأمريكى ، بالرغم من عدم تصريح « جيمس » بذلك ، وتناوله لمسائلة دينية عامة ، تتعلق بالتجربة الإنسانية الدينية بوجه عام . ولا يعتمد « رويس » فى تفسير فلسفة « وليم جيمس » على أقوال الفيلسوف نفسه ، وإنما على الروح السارية فى فلسفته . فجاء « وليم جيمس » معبراً عن روح المجتمع الأمريكى . لم ينظر لفلسفته من الداخل ، بل نظر إليها من الخارج وجعلها تجسيداً لفكر المجتمع . ويبدو أن « رويس » قد إستند فى ذلك على إعتبار المجتمع الأمريكى نموذج للمجتمع العالمى ، وممثل للإنسانية بصورة عامة . فلئن كان فى كتابة « الأنساق المختلفة للتجربة الدينية » ، يتحدث عن تجارب إنسانية عامة ، ومجتمعات مختلفة فإنه يتحدث عن المجتمع الأمريكى فى نفس الوقت . كذلك من الواضح إنه إعتمد على نظرته الخاصة للمجتمع الأمريكى ، فى تلك الفترة ، أو كمن ينظر للمجتمع الأمريكى من الخارج ، حيث تتعدد التصورات الدينية ، وفقدت المؤسسات الرسمية وصور الدين التقليدية صورتها وقيمتها . إعتبر صنوف التجربة الدينية التى أوردها « جيمس » فى كتابه الأشكال المختلفة للتجربة الدينية ، وصفاً إستقرائياً لحالة المجتمع الأمريكى ، وبالتالى يعد بحث « جيمس » فى الكتاب عن ما هو مشترك بين هذه التجارب ، ما هو إلا تجسيداً للروح الدينية للمجتمع الأمريكى . كذلك من الواضح إعتماده على آثار فلسفة « جيمس » على الفلاسفة الأمريكين . وإستلهامهم لفلسفاتهم من فكر « جيمس » ، فيصبح المرشد الروحى للحياة الدينية الأمريكية . وبذلك يحكم «رويس» على فلسفة « جيمس » من خلال النتائج والآثار ، وليس من خلال تفصيلاتها الدقيقة ، ويؤكد فى نفس الوقت النظرة من الخارج . والحقيقة أن وصف فكر «وليم حيمس» الدينى ، وإعترافه بعالم فوق إنسانى ، أمر إستنتاجه مباشرة من فلسفة « جيمس » . أما إعتباره معبراً عن الروح الدينية للمجتمع الأمريكى ، فإنه أمر أخر ، ويحتاج إلى أدلة ومقارنات وذلك ما لم

يهتم « رويس » والسؤال الذى يفرض نفسه ، أيكون لكل مجتمع روحه الدينية الخاصة به ، أم أن الدين ظاهرة إنسانية عامة ؟ من الواضح أن « رويس » يجعل للمجتمع الأمريكى سمات روحية خاصة به ، وعبر عنها فلاسفة من أمثال « إمرسون » و « وليم جيمس » ، وكأن المجتمع الأمريكى جزيرة منعزلة ، والدين ما هو إلا الوعى الإجتماعى .

ثالثاً : الفلسفة الخلقية :

لم تكن الأمة الأمريكية بعد الحرب الأهلية تبحث عن الروح الدينية التى تواكب ظروف فقط ، وإنما كانت تبحث عن مرشد أخلاقى ، يوضح لها القواعد التى يمكن إتباعها فى ظل الحياة الديمقراطية الجديدة . كانت فى حاجة عند مواجهة الأزمات الإجتماعية ، لمن يضئ لها الطريق ، ويبين لها أهدافها ويفسر حياتها . وأصبح التساؤل عن معنى الحياة ، وكيف يعرف الإنسان الطريق الصحيح إليها ، تساؤلا ملحاً . وبات واضحاً أن هناك حاجة لمجموعة من القواعد الخلقية ، تواكب المطالب الشعبية لهذه الأمة فى تلك الفترة ، ولابد أن تكون هذه القواعد جاذبة ونفعية وعملية ، تدفع للنشاط والعمل ، ولا يشعر الفرد بالحيرة تجاهها ، ولا تحتاج للتحكم الذاتى ، أو التفكير والتأمل ، ولا تكون مجردة أو صعبة الفهم بحيث يخطأ الإنسان العادى فى تطبيقها . فيكون القانون الخلقى أقرب للروح الرياضية ، التى تدفع الفرد على الممارسة العملية والنجـاح . ولا يعنى ذلك أن تكون هذه القواعد الخلقية ، مجرد تعبيرات عن دوافع ورغبات عمياء بل تحتاج إلى عقول واعية ذكية ولكنها عقول تشتاق للراحة من مسئولية مراعاة شعور الآخرين . ولكى تتخذ هذه القواعد صيغة شعبية ، لابد من مخاطبتها للقلب مباشرة ، فيكون تأثيرها مثل تأثير نفير السيارة ، وتصبح كلماتها شعارات موجهة . ويمـكن تلخيص هـذه القواعـد الخلـقية فى عبارتين ، هـما « كن كفؤاً » « ومارس الحياة ». وتتمـثل القيـمة الحقيقية لهذه القواعد فى صفات ثلاث ، الأولى أنها تتعارض مع الكسل الذى يعد العدو اللدود للإرادة الخلقية والثانية أنها تمكن من التخلص من حالات التردد ، الذى عذب روح «هاملت» ، فتداوى جراحها بالعمل

والنشاط . والثالثة تؤكد على أهمية الشجاعة وقيمتها ، وليس المقصود شجاعة عضلية ، وإنما شجاعة الروح التى تساعد على التخلص من حالات اليأس ، وتهزم العالم بالرغم من المصائب ، فالشجاعة روح الحياة الخلقية (١) .

والحقيقة أن تلك القواعد الخلقية ، وبسبب هذه الصفات الثلاث ، تعد وسائل وأدوات للحكمة ولكنها فى نفس الوقت ، أحياناً ما تعبر عن نفسها فى صيغ شعبية مأساوية ، لإنها لا تعير إنتباها إلى التحكم الذاتى ، أو للقيم المثالية ، ولا تنظر للحياة بإعتبارها جزءاً من حياة أوسع وأشمل ، فتهتم بالنتائج بدلاً من المثل العليا ، وبالقوة بدلا من التهذيب ، وبالنجاح المؤقت بدلا من النجاح الكلى . تستند على عدم الراحة أو الصبر، وعلى غياب الضمير الإنسانى فى لحظات معينة ، لذلك بالرغم من جاذبيتها، لا تخلوا من نتائج خطيرة ، لإنها قواعد تعبر عن صفات شعب ، يشتاق لإثبات وجوده ، ولكنه لم يجد الطريق حتى الآن

فإذا كان الفيلسوف يفهم طبائع الناس أكثر مما يدركون هم أنفسهم ، ويهتم بتفسير روح مجتمعه ، فإن معرفة العلاقة بين هذه الإتجاهات الأخلاقية الأمريكية فى تلك الفترة ، وفلسفة «وليم جيمس» ، تثبت من الوهلة الأولى ، أنه أفضل من عبر عن الوعى الأخلاقى للمجتمع الأمريكى فى تلك الفترة حقيقة لم يكن مدوساً للأخلاق ، ونادراً ما كتب عن المسائل الأخلاقية وتناقضاتها ، ولكن تأثير فلسفته ، كان تأثير خلقياً بالدرجة الأولى . فلقد أدرك ووضح الدوافع التى جاءت هذه القواعد اللخلقية معـبرة عنها ، فكان نشيطا فى مزاجه العام ، محباً للفردية ، وللتعبير الحر ، رافضاً للتجريدات والعبارات الغامضة ، مؤكداً لضرورة إرتباط الفيلسوف الأخلاقى بالحياة الواقعية . وأظهر كعالم نفس فاعلية الحياة الواعية ، وعلاقتها الخلاقة بالتجربة ، فإذا ما تم إدراك الروح الكامنة ، وراء هذه الملامح العامة لفلسفه « وليم جيمس » ، يظهر مدى إنسجامها مع نمط الأخلاقية ، الذى كان سائدا فى تلك الفترة (٢) . ومما يؤكد هذا الزعم ، أن ظهر من بين الأوساط الشعبية الأمريكية ، ومـن بين نقاد « وليـم جيمس » ومـؤيديه ، مـن يؤكد بأن المذ هب البراجماتى كمـا عرضه « جيمس » ما هو إلا مذهبا أخلاقيا فى أساسه ، ومنهم من إعتبره نوعا من التعميم الفلسفى لمذهب « الكفاءه » .

---

(١) Ibid : p. 29.

(٢) Ibid : p. 32.

والحقيقة أن قراءة متعمقة لمذهب « جيمس » ، كما جاء فى كتابة « البراجماتية » ، تبين أن إهتمامه بفلسفة الحياة ، كان أعمق من مجرد التعبير عن القاعدتين اللتين ، تطالبا « بالكفاءة » « وممارسة الحياة » . فلقد جاء الكتاب فى معظمه يرسم منهجاً للبحث ، وأن كان به بعض المسائل الأخلاقية ، التى وردت بصورة عرضية . كذلك لقد أحتج «وليم جيمس » نفسه فى إعتبار المذهب البراجماتى ، مذهب أخلاقى بأى صورة ، وقرر أن كتابه عن « البراجماتية » ، يعرض لمنهج فى التفلسف ، وتعريف الحقيقة ، ويقدم معيارا لإختبار صحة النظريات ، ولا يهتم بأى قضايا أخلاقية ، فالبراجماتى حر فى إختيار قواعده الخلقية طالما يستخدم المنهج البراجماتى فى إختيارها ، ويجرى تقييمها من خلال نتائجها العملية فى الواقع . وبالرغم من ذلك ظهر من يؤكد ، بأن طالما يختبر المذهب البراجماتى معنى ومصداقية الأفكار من خلال نتائجها التجريبية والعملية فى الحياة ، فإنه مذهب يجسد خصائص الفلسفة الأمريكية ، ويحكم على الأفكار من خلال كفاءتها العملية فى الحياة ونتائجها المرئية ، وقيمتها الفورية (١) .

حقيقة أن « جيمس » فى كتابيه « الأشكال المتعددة للخبرة الدينية » و « عالم متعدد » كان فيلسوفا تجريبيا ، متمسكاً بالمحسوس ، وباحثا عن المستقبل . وقال فى كتابه عن « البراجماتية » ، بالقيمة الفورية للافكار ، ولكنه بالرغم من ذلك ، لم يكن من المفكرين الذين يهتمون بالأشياء المحسوسة ، ولا ينظرون ورائها ، ولم يكن يقصد « بالنتائج » التى تقيم الأفكار ، من خلالها ، عند تطبيق المنهج البراجماتى ، مجرد النتائج الدنيوية ، أو نتائج تحدث فى العالم المحسوس ، كما يفهم منها عادة . كان يرد كل شئ للتجربة ، ولكن التجربة عنده ، قد تكون تجربة دنيوية ، وخبرة باللا مرئى والفوق إنسانى . حقيقة أن مذهبه البراجماتى نموذج للفلسفة الأمريكية ، وكان مهتما « بالكفاءة » ، وبمن يمارسون دورهم فى الحياة ، ولكنه كان مهتما أيضا بالضعفاء والمنبوذين والمتدينين ، وإعتبرهم ضحايا تمسك المجتمع الأمريكى بفلسفته « الكفاءة » . ومع ذلك تظل الجوانب الخلقية لفلسفة الحياة عند « جيمس » ، معبرة بصورة واضحة عن روح الشعب الأمريكى . وتظهر هذه الجوانب واضحة فى كتابه إرادة الإعتقاد .

---

(١) Ibid : p. 34.

فلئن كان لا يؤمن بإمكانية وجود مثل أعلى للحياة الإنسانية ، إلا إذا عاش آخر فرد من أفراد الإنسانية حياته وتجربته وقال كلمته ، إلا أن مذهب التجريبى ، قد جاء مؤكدا على أهمية الحياة النشطة ، كأساس للنجدة ، وبذلك يختلف « وليم جيمس » عن الفلاسفة الوضعيين ، فلا يكتسب الفرد الخبرة كما تأتى له ، ولا تكون الوقائع مجرد معطيات ، وإنما تكون معطيات ، لما يستجيب له الفرد ، فتشكل الأفعال الخبرة . ولقد شرح « جيمس » تلك الحالة بالتفصيل فى كتابه « علم النفس » . فلا يقف الإنسان موقفا سلبيا من الخبرة ، وتوضح أبسط حالات الإدراك ، إنه يتعاون ويشارك فى خلق عالمه . ولئن كان من الضرورى تقييم الحياة فى ضوء الخبرات والنتائج والتحققات الفعلية ، ولما يعتبره الشعب الأمريكى كفاءة ، فإنه لا يجب تقييم « الكفاءة » نفسها فى ضوء المعطيات فقط . إن تقدير العالم والحياة ، لا يجب أن يتم فى البحث عن مجرد النتائج ، ولا تكمن قيمة الحياة ، فيما يجده الإنسان فيها ، بل تكمن قيمتها فيما يمكن أن يحققه بها ، بالتفسير العقلى والمثالى للمعنى الذى يطلبه منها ، فيكون هذا المعنى المثالى مسألة إيمان أو إعتقاد ، ولكنه لا يكتشف من مجرد ملاحظته الإنتصارات وتحقق المكاسب ، أو مجرد الشعور بممارسة دور فى الحياة . أن المثل العليا تقوم دائما على رؤية الحياة اللحظية فى ضوء الجوانب الأخرى للحياة ، وعلى رؤية الفرد لنفسه كمشارك فى العالم ، ويكسب ويحقق ، ما لم يحققه أى فعل إنسانى آخر حتى الآن ، لذلك تشير الخبرة دائما عند « وليم جيمس » ، إلى عالم يقع ورائها ، ولم يطلع عليه بشر حتى الآن ، حقيقة أنه عالم تجريبى و لكن يحق لأى فرد أى تفسيره فى ضوء إعتقاد ما ، بإنه عالم نشيط ، متغير فعال ، وليس مجرد عالم دنيوى مجسم محسوس ، وحقيقة أن فلسفة الفعل عند « وليم جيمس ، تظهر تأثره الواضح بأفكار « كارلايل » ، وأن كان « جيمس » قد أعاد تفسيرها وتأويلها (١) .

لذلك وبالرغم من مسايرة القواعد الخلقية التى وردت فى كتاب « إرادة الإعتقاد » « لوليم جيمس » للإتجاهات التجريبية والأخلاقية السائدة فى عصره ، إلا إنها لا تعد مبادئ

---

(١) Ibid : p. 37.

وقواعد فيلسوف إنطباعى ، أو رومانسى ، أو مدافع عن الكفاءة العملية ، بل هى مبادئ تشق طريقها من خلال كل الإتجاهات والنظريات والمناهج العلمية ، إلى شئ ورائها ، لتفسير الحياة الإنسانية ، بإعتبارها فرصة للتعاون والإلتحام مع العالم الإلهى والفوق إنسانى . ولئن كان «وليم جيمس » قد إشتهر بعدائه للمطلق ، فالحقيقة أن فلسفته ، لا تخلو من الروح المثالية . فالنظرية العلمية ما هى إلا تفسير صورى للمدركات الجزئية ، وتكون الثقة فيها نفسها ، قائمة على إعتقاد ما ، كذلك ألا يحكم « وليم جيمس » على قواعده الخلقية ، من خلال الإعتراف المتكرر بحقائق مطلقة معينة يؤمن بها ، ويدافع عنها بمهارة جدلية ؟ . الواقع أن « وليم جيمس » قد أسس الحاجة للإعتقاد النشط فى اللامرئى والفوق إنسانى على ثلاث مبادئ مطلقة . الأول يتطلب أن كل قرار فى الحياة العملية . يستند على إعتقاد ما ، يكون له نتائجه التى لاتقبل النسخ أو الإلغاء ، والثانى أن طالما يرتبط الفعل بالإعتقاد ، فإن حق الفرد فى الإعتقاد ، يستند على حقه فى إتخاذ القرار ، والثالث أن واجب الفرد عند الحكم فى أمور الحياة ، يكون محددا بالقاعدة المطلقة ، بأن فى المواقف المحيرة ، يعد التردد وعدم إتخاذ القرار ، قراراً فى حد ذاته ، ولذا لا يستطيع الفرد التنصل من المسؤلية الأخلاقية ، والتى تحدد مكانه فى كل حياة مستقبلية . فالعالم يحتاج لأفعال البشر ، ويحتاج الإنسان لتفسير العالم لكى يسلك . لذلك يحق للفرد تأويل العالم ، حتى يتمكن من القيام بأعماله بعزم وشجاعة وبإحساس بقيمة ومسؤلية العمل (١) .

تبين الفلسفة الخلقية « لجيمس » الدلالة الروحية لكل فعل أخلاقى ، وعمق الروح الإلهية لقواعده الخلقية . وتبين فى نفس الوقت كيف إستوعب الروح الأمريكية فى عصره ، ونقلها والتعبير عنها ، والواقع أن كتابه « إرادة الإعتقاد» يعرض للكثير من أخلاق « فشته » المثالية ، بصرف النظر عن معارضة « جيمس » لتلك الأخلاق . كذلك بالرغم من معارضة « جيمس » لمثالية « هيجل » ، وللصور الحديثة من المثالية البنائية ، إلا أن هناك الكثير من فلاسفة المثالية المطلقة ، من تعلموا الكثير من آراء « وليم جيمس » ، التى وردت فى كتابه « إرادة الإعتقاد . بل ويمكن القول ، بأنه فى كتابة الأخير ، « عالم متعدد » كان

---

(١) Ibid : p. 40.

أخلاقياً ومثالياً وقريباً من روح « هيجل » ومقولاته . إن القيمة الحـقة « لإرادة الإعتقاد » « وعالم متعدد » ، تظهر فى قدرة العقل على التعبير والتعالى بأخلاق مثالية ، تسمو فوق الأخلاق الأمريكية السائدة فى عصره . ولقد إستعان « جيمس » لتحقيق هذه الغاية ، بأراء الطبيعيين والإنسانيين من الفلاسفة . ودرس بالجدل الأخلاقى وقائع الحياة الإنسانية ، وتمكن من إدراك الروح الكامنة ورائها . أحب المجسم والواقعى ، ولكنه بحث وراءه عن الحياة الكلية . وقال ببعض الأفكار الكلية ، ويدور للعقل المجرد ، ولكنه إستطاع بأسلوب مرن ، عرض هذه الأفكار الكلية ، بصورة ساعدت أفراد المجتمع على فهمها وتطبيقها. إن قيمة فكر « جيمس » الحقيقية ، لاتكمن فى أرائه النفسية أو التجريبية أو البراجماتية ، وإنما فى تفسيره للروح الأخلاقية فى عصره ، وفى قدرته على فهم الجزئيات والتعالى عليها ، وفى إظهاره لدور العقل ، ولا يعنى العقل عند « وليم جيمس » ، مجرد كتله من الأفكار النظرية المجردة ، بل عقل مبـدع فى الواقع والحياة العملية ، يستند على الإعتقاد والعمليات المنطقية ، ولكنه يعبر عن الروح الأمريكية (١) .

ومن هذه القراءة التى يقدمها « رويس » « لجيمس » ، تظهر فلسفة « وليم جيمس » بإعتبارها فلسفة تجمع بين الخبرة الشخصية والتجربة الإجتماعية الدينية والأخلاقية للشعب الأمريكى ، بمعنى أنها فلسفة تعبر عن تجربة شخصية ، وتعبر فى نفس الوقت عن روح عصرها ، وروح المجتمع الأمريكى الذى نشأت منه . وبذلك تكون الفلسفة الحقة هى التى تجمع بين الخبرة الفردية الأصيلة ، وتعبر فى نفس الوقت ، بصورة غير مباشرة عن روح وقيم ومثل وأخلاق الجماعة . فتصبح الفلسفة صوت الشعب . فلقد قدم « وليم جيمس » فلسفة تبدو فى ظاهرها أو للوهلة الأولى ، فردية أو ذاتيه بحته ، ولكنها جاءت فى أعماقها ، فلسفة معبرة عن مطالب وحاجات الأمة الأمريكية فى فتره ما بعد الحرب . ويتسق هذا التقييم لفلسفة « جيمس » مع موقف « رويس » من علاقة الفرد بالمجتمع بصورة عامة . فهناك الإنسان الفرد والإنسان المجتمع ، الأول ظاهر والثانى كامن فى أعماق الفرد . ويتسق أيضا مع تمجيده للمجتمع ، فالفلسفات التى لا تعبر عن روح مجتمعاتها ، لا قيمة

---

(١) Ibid : p. 45.

لها . ومن الواضح أيضاً أن « رويس » فى عرضه لفكر « وليم جيمس » طبق فكراً « هيجلياً » أو قرأه من خلال « هيجل » ، فالمطلق يعبر عن نفسه فى الأفراد دون وعى منهم ، والروح الإجتماعية ، قد تعبر عن نفسها من خلال الفلاسفة ، فجاء « وليم جيمس » معبراً عن روح الأمة الأمريكية الدينية والأخلاقية ، بالرغم من عدم حديثه عن أى كيان إجتماعى ، وبذلك يصبح الفيلسوف ، معبراً عن روح مجتمعه دون وعى منه بهذا الدور أو التعبير ، وكأنه أداة يستخدمها المطلق ، ويعبر عن نفسه من خلالها .

خص « رويس » فلسفة « جيمس » بصفتين أساسيتين ، الأولى أنها فلسفة إجتماعية تعبر عن روح عصرها ، والثانية أنها فلسفة دينية فى أعماقها ، ولا تخلوا من روح مثالية . ويتسق ذلك التأويل لفلسفة « جيمس » مع موقف « رويس » من الفلسفات غير المثالية ، إذ يعتبر كل فلسفة ، مهما كانت هويتها وإتجاهاتها ، ماهى إلا فلسفة مثالية فى أعماقها(١) . كذلك يمكن تبرير تأكيد « رويس » على هاتين الصفتين لفلسفة « جيمس » بأنه نوع من التبرير غير المباشر ، لإستفاده « رويس » من بعض آراء « وليم جيمس » فى صلب فلسفته ، وبالتالى حاول أن يبين إتساق روح فلسفة « وليم جيمس » مع فلسفته المثالية وروحها الإجتماعية .

والحقيقة أن عرض « رويس » لفلسفة « جيمس » لم يكن عرضا تفصيليا ، للموضوعات التى تناولها « جيمس » ، أو الحلول التى قدمها للمشكلات الفلسفية . لم يعرض له بنوع من التفصيل ، مثلما عرض لأفكار المثالية الإلمانية ، وإنما جاء عرضه من الخارج باحثاً عن الروح السارية فى كتب ومؤلفات « وليم جيمس » ، لذلك يصعب رصد الأفكار التى تأثر بها « رويس » فى فلسفته من خلال هذ العرض . فلقد إتسم العرض بروح التأويل لفلسفة « جيمس » ، وكانت الغلبة للغة الخطابية الحماسية ، على اللغة النقدية التحليلية لفكر وأراء « وليم جيمس » . ويمكن تفسير ذلك الموقف ، بأن « رويس » كان قدم هذا العرض بمناسبة مرور عام على وفاة « وليم جيمس » فجاء العرض كنوع من الولاء للأستاذ . كذلك من

---

(١) J. Royce : Lecures on Modern Idealism p. 80 - 84.

الواضح أن « رويس » فى تأويله لفكر وآراء « وليم جيمس » ، وقد إعتمد على دعوى حاول إثباتها ، هى أن الفيلسوف يتجهه في آخر حياته أو فى مرحلة النضج نحو المثالية . وكأن المثالية تمثل قمة التفلسف . فإعتبر كتاب « عالم متعدد » ، بإعتباره آخر مؤلفات « وليم جيمس » المعبر الحقيقى عن روح فلسفة « وليم جيمس » ، لم يستند « رويس » على حدس واحد ضارب فى أعماق جميع مؤلفات « جيمس » وإنما إعتمد على مؤلفاته الأخيرة حتى يثبت مثاليته ، وكأن « جيمس » فى بداية حياته كلها ، كان واقعيا أرضياً حسياً ، وفى آخر مؤلفاته ، إتجه إتجاها روحيا ، وقال بالآلهة والفوق إنسانى . وبذلك تصبح المثالية اللحظة الضرورية والأخيرة ، التى يصل إليها الفيلسوف .

والحقيقة أن « رويس » قد أخذ من فلسفة « وليم جيمس » موقف الناقد والمؤول والمتأثر ، فمثلا لم يتفق مع تفسير « جيمس » للمجتمع ، والقول بالوعى أو الشعور المركب ، وتجمع وإنفصال الأفراد ، وإعتبارهم جزر منعزلة ، والقول بالوحدة اللامعقولة بين النفوس ، وإعتبار « التداخل » فرض مقبول ، وحل مشكلة التداخل بين النفوس ، بمعارضة المذهب العقلى (١) . وأول بعض آراء « وليم جيمس» خاصة النتائج التى إنتهى إليها « وليم جيمس » فى نهاية حياته ، مثل فكرة الحدس الأعلى ، أو الذات الواسع الذى يتركب من كل النفوس الفردية ، وإعتبرها « رويس » متفقة مع الآراء المثالية التقليدية (٢) . وأما بالنسبة للآراء التى وافق « رويس ، جيمس » عليها وحاول تطويرها ، فمنها ما أعلن « رويس » عنها إعلانا صريحاً ، ومنها ما جاء متسربا فى صلب فلسفته ، دون التصريح بها مباشرة . فلقد أعلن صراحة فى كتابة « مشكلة المسيحية » ، إتفاقه مع « وليم جيمس فى إعتبار الفكرة موجة (٣) . ومع روح البراجماتية كما عرضها « وليم جيمس » وفى أن أى مقولة ميتافيريقية ذات معنى ، تكون تعبيراً عن سلوك الإرادة ، للفرد الذى يؤكدها أو يقتنع بها . أى لامعنى لها إذا لم تعبر عن سلوك الإرادة ، والعزم على التعامل مع العالم ، كما لو كان له صفات معينة . ولذلك لابد أن تشكل الإرادية جزءاً أساسياً من أى فلسفة تفسر الإهتمامات المتيافيزيقية للأفراد . لأن الأهتمامات الميتافيزيقية ، إهتمامات تهتم بتوجية

---

(١) J. Royce : The Problem of Christianity p.I p.310.

(٢) Ibid : p.312 .

(٣) J. Royce : The Problem of Christianity p.II p.p180 - 199.

الإرادة ، وتحديد السلوك تجاه الكون ، وتحول القرارات والأفكار إلى أمور عملية . وأن كان « رويس » لم يوافق على أن تظل الإرادة براجماتية ، وقال بالإرادة المطلقة .

وأما بالنسبة للموضوعات التى تأثر بها « رويس » فى صلب فلسفته ، فمن الواضح أنه لم يستطع التخلص من تأثير أستاذه « وليم جيمس » . فكان لعلم النفس والحركة النفسية الفلسفية التى ساهم « جيمس » فيها ، مكانها فى فلسفة « رويس » . واستفاد من تحليلاته للخبرة النفسية ودور الإرادة والإنتباه . كذلك جاءت آرائه إستمراراً لدور أستاذه فى تعميق وتوسيع نظرية التطور ، ومحاولة تطبيقها فى مجالات متعددة . فطبق النظرية فى تفسير نشأة النفس والأشياء الطبيعية والأفكار الجديدة . ووحدّ بين الفكر والواقع ، حقيقة لم يستند على فكرة « الهيولى المحايدة » ، التى قال بها « جيمس » (١) ، الإ أن موقفه جاء متسقاً مع موقف « جيمس » من الصراع بين العقل والمادة . وفى الأخلاق جاء موقفه مشابهاً لموقف « جيمس » من حيث الإعتراف بوجود الشر ، وضرورة التغلب عليه ، وأفكار الشر إنكار للخير . أعطى للإرادة دوراً فى الوجود والمعرفة ، فالإرادة تخلق الواقع ، فجاء متأثراً بإرادة الإعتقاد عند « وليم جيمس » ، إهتم بفكرة « الهدف » ، فالذات الإنسانية هدف ، وللأفكار أهداف داخلية وخارجية ، وبالتالى يؤكد على فكرة المستقبل ، كما فعل « جيمس » ، فلا يهتم بالنشأة أو الأصل ، بقدر إهتمامه بالنتائج . ولئن كان « جيمس » يربط معنى العبارة بالدلالة العملية أو النتائج ، فما يكون له معنى يكون له نتيجة (٢) . فلقد وحد « رويس » بين المعنى والغاية ، وإستخدم كلاهما بمعنى واحد . وأن كان الله عند « جيمس » ، يستمد من ولاء الإنسان وإخلاصه وجوده ومقوماته ، هناك حاجة متبادلة بين الله والإنسان (٣) ، فالمطلق عند « رويس » لا وجود له بدون المتناهى ، فكلاهما تصوران لأزمان أو متضايفان .

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن ، لماذا تعتبر البراجماتية من مصادر فلسفة « رويس » بالرغم مما كان واضحاً فى فترة ظهور البراجماتية ، على يد مؤسسها « شارلزبيرس »

---

(١) F. Copleston, S.J. Ahistory of Philosophy Vol . 8 , p.p. 87 - 101 .

(٢) Ibid : p.102.

(٣) W. James, : The Varieties of Religious Experience, Astudy in Human Nature, Longman (1902), 1952, p.p 520 - 572.

وأكتمالها كفلسفة فى كتاب « وليم جيمس » ، « المذهب البراجماتى » ، على أنها فلسفة تعارض النظريات المثالية ، خاصة تلك التى تنادى بالمطلق . حقيقة أن « وليم جيمس » فى عرض آرائه الدينية ، لم ينتقد المذاهب المثالية ، مثل نقده للمذاهب الدينية اللاهوتية التقليدية ، على إعتبار أن فلسفات المطلق ، لا تفصل بين الفرد والمطلق ، إلا أنه كان واعياً لموقف المذاهب المثالية ، وكان فى صلب فلسفته معارضاً ومؤكداً رفضه لها . خاصة مسألة إعتماد تلك المذاهب على العقل فى إقامة البراهين الدينية . وسعى دائماً لبيان أن التجربة الدينية ، تجربة فردية وجدانية ، يأتى فيها الذهن بعد الوجدان (١) . كذلك ما يعطى لهذا السؤال أهمية ، أن « رويس » فى كثير من تفصيلات فلسفته (٢) . كان رافضاً ، لبعض آراء « وليم جيمس » خاصة مسألة القيمة الفورية للتصورات . والواقع أن الأجابة على هذا السؤال يمكن تفسيرها من منطلق التصور الفكرى لفكر « رويس » فمن الواضح أن « رويس » فى بداية حياته الفلسفية ، كان متأثراً « بهجيل » ، وكان يتصور المطلق عقلاً صرفاً شاملاً ، وبعد ذلك إزاء تأثره ، « بشوبنهور » وتحول الفكر الشامل إلى الإرادة الشاملة ، ولكنه لم يتفق مع الإرادة العمياء عند « شوبنهور » ووجد فى البراجماتية صياغة جديدة لإرادة الحياة عند « شوبنهور» ، وأصبحت كل فكرة تعبر وتثبت إرادتها فى الحياة ، وتهدف للنجاح والتحقق ، فاكتسبت الإرادة دوراً فاعلاً ، وتحولت إلى إرادة عملية ، وأن كان « رويس » لم يتوقف عند المعنى البراجماتى للإرادة ، وأكسبها صفة الأطلاق .

كذلك يتضح تأثر « رويس » بالبراجماتية ، أو ظهور ملامح البراجماتية فى فلسفته من خلال بعض الآراء التى إستفاد منها وطورها ، ومن بعض الأراء التى قام بنقدها ، ولكنه لم يرفضها ، ومزجها فى صلب فلسفته . ففى علاقة الإنسان بعالمه الخارجى ، إعتبر الحاجة والأرادة ، محوراً لحل المشكلة ، فعلاقة الإنسان بالعالم ، لا تتقرر من منطلق الانطباع الحسى فقط ، وإنما تتحدد من خلال ما يقتضية إشباع الإنسان لإحتياجاته الواقعية . وإتفق مع « جون ديوى » فى إسقاط التمييز بين المعرفة والفعل (٣) . فالفكرة التى لا تتحول من الإدراك إلى عمل ، أو التى لاتوحى بسلوك معين ، تظل فكرة سلبية ، أى الفكرة التى لا

---

(١) د. زكريا ابراهيم دراسات فى الفلسفة المعاصرة ، ص ٤٨ إلى ٥٦ .

(٢) J. Royce : The Problem of Christianity p.II p. 180 - 186.

(٣) بيتر كاز : تاريخ الفلسفة فى أمريكا خلال ٢٠٠ عام (جون ديوى) ترجمة د. مراد وهبه ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ص ٣٥٠ .

يتحقق هدفها الخارجى ، تـظل فـكرة ناقـصة . وفى كـتابه « مشـكلة المسيحية » ، يقرر « رويس » إستفادته من منطق « شارلزبيرس » فى العلاقات ، وفى صياغة منهج التأويل . وعلاوة على ذلك جاء موقفه وتساؤله عن مدى ملاءمة الدين المسيحى القصائدى ، بنظمة وكنائسة ، لإنسان القرن العشرين (١) . مشابهاً لتساؤلات « وليم جيمس » ، وتنم فى جوهرها عن القيمة العملية والنفسية للدين ، وأن أى تقييم حقيقى للدين ، لابد أن يكون من خلال حاجة الإنسان إلية فى حياته العملية ، والأديان التى لا تشبع حاجات الإنسانية تفنى وتموت ، وبصرف النظر عن أن إعادة تأويلة للمسيحية جاء مخالفا لموقف « جيمس » منها ، إلا أن دافعه للتأويل ، يعتبر دافعاً نفعياً براجماتيا .

وأما بالنسبة للآراء التى نقدها وإستفاد منها فى صلب فلسفته ، فمعالجته لمشكلة الحقيقة نموذج لها . إعتبر « رويـس » مشـكلة الحقيقة فى مجموعة من المقالات التى تتناول « فلسفة الحياة » ، مشكلة تحكمها ثلاث إتجاهات (٢) . فيرى المذهب الأداتى ، أن صحة الأفكار فى تحولها إلى وظائف عضوية ونفسية ، والأفكار عبارة عن أداة تعين الفرد على التكيف . وإعتـبر المذهـب البراجماتى عند « جيمس » صحة الأفكار مرتبطة بنتائجها العملية ، وماهو نافع صادق ، وأن كان قد قال بالقيمة المؤجله للأفكار ، بجانب القيمة الفورية لبعضها فتظل الأفكار صحيحة طالما تتفق مع الإرادة العامة للفرد ومطالبة ، بالرغم من عدم إمكان إختبار صحتها فى اللحظة الحاضرة . وإما المذاهب الرياضية المعاصرة ، فأنها قد توصلت لمعنى الحقيقة المطلقة ، على إعـتبار أن هـناك قـضايا ، مطـلقة اليـقين أو يقينها فى ذاتها (٣) . وإن كان « رويس » لم يتفق مع « برتراندرسل »، فى إستقلال تلك الحقائق عن الأفراد . نقد « رويس » الأداتية من منطلق تناقضها الذاتى ، ولكنه لم يرفضها وإنما إعتبرها غير كافية لتحديد معنى الحقيقة . وإما بالنسبة لنظرة البراجماتية الفردية للحق ، ومحاولتها معالجة عيوب المذهب الأداتى ، والقول بالقيمة المؤجلة للأفكار ، والإعتقاد فى صحة بعضها ، بالرغم من عدم تحققها فى التجربة الفعلية ، فإنها ولئن كانت هذه النظره لمعنى الحق ، تجعل الإنسان يتحكم فى الحقيقة ، ويفرض ما يشاء ، ومايناسب

---

(١) J. Royce : The Problem of Christianity p.I The Preface.

(٢) J. Royce : William James, and The Philosophy of Life, p.180.

(٣) Ibid : p. 185 .

منافعه وأهدافه ، وتؤكد الحرية والديمقراطية والفردية ، الإ أنها تعد أيضاً ، نظرة غير كافية لتفسير معنى الحقيقة . وإنتهى « رويس » من نقده لكل من المذهب الآداتى والمذهب البراجماتى ولكنه لم يرفض نظرتهما للحق ، وإنما إعتبرهما غير كافيتين . والواقع أن « رويس » كان واعياً بالصراع القائم بين أصحاب المذاهب الآداتية والبراجماتية من جهة ، وبين المثالية القائلة بقوانين العقل المجرد كمعيار للصدق ، والقول بالحقائق المطلقة (١) .

إكتشف « رويس » أن التناقض بين المذهب العقلى والبراجماتية ، ماهو إلاّ تناقضاً بين مسلكين شائعين للإرادة ، الإرادة المخلصة للحق كمثل أعلى ، والإرادة الفردية التى تهتم برغباتها اللحظية . كذلك إعتبر أن سبب الصراع القائم بين التصورات المختلفة للحق ، قد تنتج سبب الإعتقاد ، بأن ليس هناك إلا قوانين العقل ومنطق العقل . ولكن الحقيقة أن هناك منطقاً للإرادة ، مثلما هناك منطق للعقل ، فالمنطق منطق الإرادة ، ولا يوجد عقل بحت أو خالص ، فكل فكر فعل ، والفكرة فى العقل عبارة عن وعى حاضر يعبر عن هدف ما ، وعن خطة للفعل ، والأحكام ماهى الإ أفعال ، تتمثل فى قبول أو رفض الأفكار ، بإعتبارها تعبيراً عن الهدف التى وجدت من أجله ، وأنتهى « رويس » بالقول بمذهب الأرادة المطلقة ، الذى يتسق مع المذهبين الآداتى والبراجماتى ومع المذاهب المثالية . يعترف المذهب بالأرادة الفردية ، ولكنه لا يوافق على نسبية الحقيقة ، فالأرادة فى حاجة إلى الأكتمال والإمتلاء بالحياة ، لذلك تتصف بالإطلاقية ، ومقولات الإرادة هى مقولات الفكر والفعل . تظهر فى السلوك الأخلاقى الملتزم ، وفى الصفات الموضوعية لموضوعات الخبرة ، وتكون معرفة الفرد لهذه الموضوعات على صلة بحاجاته الإنسانية . حقيقة كما يقول الآداتيون ، أن الإنسان يسعى للتحكم فى خبرته ، وكما يقول البراجماتيون أنه يعبر عن إرادته الفردية فى كل البناءات التجريبية ويسعى للنجاح . ولكن يبقى أن الإنسان فى كل هذه الأفعال ، يعبر عن إرادة مطلقة كلية (٢). وبالتالى تكون واحدة فى كل الناس ، أن إرتباط الحق بالإرادة ، يوجد بين النظريات المتعارضة حول مفهوم الحق ، وتصبح جزئيات المذهب الآداتى تعبيرات لهذه الإرادة المطلقة ، ويمكن القول بأن الإرادة المطلقة توحّد الأفكار ، وتعطى للمذهب الآداتى وحدة الهدف، وللبراجماتى الإستمرارية . وينتهى «رويس » بإكساب المذهب الآداتى والمذهب البراجماتى ثوب المثالية ، وتصبح البراجماتية مطلقة والأداتية تعبيرا عن الإرادة المطلقة .

---

(١) Ibid : p. 190 - 195 .

(٢) Ibid : p. 248 - 254 .

إتبع « رويس » نفس المنهج الإنتقائى الذى طبقه فى دراسته للفلسفة المثالية ، فى دراسة البراجماتية . وإعتبر « وليم جيمس » الممثل الوحيد للبراجماتية بإعتبارها فلسفة مميزة للشعب الأمريكى ، فأهمل « جون ديوى » « وشارلزبيرس » بالرغم من إستفادته من بعض أرائهما ، ولكنه لم يضعهما فى مصاف الفلاسفة المعبرين عن الروح الأمريكية . ويعتمد منهج « رويس » فى التقويم ، سواء للمثالية الألمانية أو للبراجماتية ، على منهج التفسير الإجتماعى لتلك الفلسفات . فمثلما كانت المثالية نابعة من ظروف العصر ورد فعل لها وجاءت مجسدة لمقتضيات الواقع ، وعبرت عن حاجة الأمة الألمانية للوحدة ، وتجديد الإيمان أو تعقيله ، وتجسيد لروح البطل ، جاءت فلسفة « وليم جيمس » معبرة عن مطالب الحياة الأمريكية الدينية والأخلاقية بعد الحرب الأهلية . ومثلما كانت المثالية فى ظاهرها فلسفة تأملية ، تبدو بعيده عن الواقع . كانت البراجماتية فى ظاهرها فلسفة عملية فردية ، تهمل روح الجماعة . وسعى « رويس » من خلال عرضه لكل من المثالية والبراجماتية أن يبين الأتساق بينهما ، من خلال التفسير الإجتماعى ، وبيان الروح الإجتماعية السارية وراء هذين النموذجين من الفكر ، وبذلك يصبح المجتمع الروح الكامنة الحقيقية من وراء تلك الفلسفات .

والحقيقة أن فلسفة « رويس » قد جاءت تطبيقاً لمنهج التأويل كما فهمه هو نفسه ، فجاءت فلسفته مركبا من النقيضين ، أى من المثالية والبراجماتية فالتأويل مركب يجمع بين الثنائيات فى تآلف . والفلسفة المثالية ، فلسفة تأملية ترد العالم الى مبدأ واحد ، والمعرفة أساس الوجود، وتخضع الأشياء لنظام الأفكار. والبراجماتية فلسفة عملية ، ترد العالم الى الكثرة ، والتجربة الشخصية أساس المعرفة . حاول « رويس » فى فلسفته التأليف بين النقيضين . ففى البداية عرض لهاتين الفلسفتين ، وسعى من خلال التأويل ، لبيان روح الوحدة والتشابه بينهما ، أو بين الروح السارية فى كلاهما فكلاهما تعبران عن روح الجماعة وروح العصر والروح الدينية ، بالرغم مما يبدو من إختلافات ظاهريه بينهما ، وفى صلب فلسفته جاء المزج بين النمطين من الفكر. فمثلاً وحد بين الفكر والواقع ، ولكنه لم يسر

مسار « هيجل » فى جعل الأحداث تجسيداً لقوانين المنطق فقط ، ولم يسر مسار « وليم جيمس » فى التعبير عن تلك الوحدة ، بردها إلى فكرة ثالثة إلى جانب فكرتى العقل والمادة ، وجاءت الوحدة بين الفكر والواقع أو الذات والموضوع وحدة يكمل فيها كل طرف الطرف الأخر ، ولا يخضع طرف للأخر ، فوحدة الفكر بالواقع وحدة عملية ومثالية فى أن واحد . وفى دراسته للمسيحية ، سعى لتعقيل عقائدها كما فعل « هجيل » فى دراسته لها ، ولكنه سعى أيضا لتحويلها الى فلسفة للحياة ، تتسق مع الفكر البراجماتى ، كذلك وحد بين العقل والإرادة ، فهناك صلة بين العقل المفكر والعقل المرشد للسلوك . عالج التناقض بين الإرادة الكلية والإرادة الفردية ، بين الضرورة والحرية ، بين الفرد والمطلق ، بين العالم الواحد المثالى والعـــالم المتعدد البراجماتى ، وبذلك جـــاءت فلسفة « رويس » مـــزجاً بين المثالية الألمانية والبراجماتية .

وإذا تم تقسيم المصادر الفلسفية للفيلسوف الى مصادر معلنة وغير معلنة (١) يكون للمفكر نوعان من المصادر ، معلنة يصرح بها ويؤكد تأثره بها ، سواء كان التأثر إيجاباً أو سلبا ، مؤيداً أو معارضاً ، ومصادر غير معلنة تكون كامنة وراء الوعى ، أو تحت الشعور ، ولا يصرح بها الفيلسوف ، ولكن يمكن إستنتاجها ، باعتبارها تياراً خفياً يكمن خلف أحكامه ومـــواقفة . وتعـــد المثالية والبراجماتية مـــن المذاهب الفلسفية ، التى أعلن عنها « رويس » كمصادر مباشرة لفلسفته ، أو كإتجاه عـــام لفلسفته . وأمـــا المصادر غير المعلنة لفكر « رويس » فمن الواضح أنه قد تأثر فى فلسفته بالفكر الدينى المسيحى وبالوجودية والظاهريات ، وتأثر فى أحكامه بأحكام الفهم العام وبالروح العلمية . فجاء الفكر الدينى المسيحى كامناً فى أعماق « رويس » ، وتبدو كل محاولاته لتعقيل الإيمان المسيحى وإظهار الروح الدينية للفلسفة ، دليلاً على أنه فيلسوف متدين ، أو يزيد نصيب الدين عن نصيب الفلسفة فى فلسفته . حقيقية أنه رفض العقائد التقليدية للمسيحية ، وسعى لتأويلها تأويلا فلسفيا ، وإستبدل بفلسفة الولاء العقائد الأخلاقية المسيحية ، وبين عدم ملاءمة الفكر المسيحى التقليدى لظروف العصر وتطوراته ، إلا أنه لم يهجر الروح المسيحية ،

---

(١) د. حسن حنفى : مقدمة لعلم الاستغراب ، ص ١٠٩

ولم يتخلى عنها سواء فى فلسفته أو فى منهجه . وأما عن محاولاته لإظهار الروح الدينية فى الفلسفة ، من خلال إستعراض تاريخها ومشكلاتها ، فإن هذه الروح قد جاءت فى النهاية تعبيراً عن الوعى المسيحى .

وتعد فلسفه « الظاهريات » من الفلسفات التى تأثر بها « رويس » ولم يعلن عنها مباشرة ولم يتناولها بالعرض أو النقد ، فلئن كانت الظاهريات تمثل إكتمال الوعى الأوروبى (١) ، فإن فلسفة « رويس » جاءت إكتمال للوعى الفلسفى الغربى بصورة عامة ، أى الوعى الأوروبى الأمريكى . إعتبر « رويس » المثالية المطلقة الروح السارية فى كل فلسفة مهما كان إتجاهها ، فالمثالية المطلقة هى الترجمة الحقيقية لمكونات الوعى الغربى بمحوريه الفلسفى والدينى ، كذلك من الواضح إستعانه « رويس » بمفهوم « القصد » الذى ورد فى فلسفة الظاهريات ، ولئن لم يضع العالم بين أقواس كما فعل « هوسرل » ، إلا أنه أعطى « للقصد » قيمة كبرى فى فلسفته ، فلا معرفة أو وجود بدون القصد . أما روح الفلسفة الوجودية ، فقد ظهرت فى إعلاء « رويس » لقيمة الإنسان ، وحريته ، وتوضيح علاقته بالمطلق دون إلاخلال بحريته وإرادته الفردية ، والتأكيد على الإرادة وحرية الإختيار . .

وكان للروح العلمية ولفلسفة العلم قيمتها فى فلسفه « رويس » ، تناول النظريات الطبيعية والرياضية بالتفسير والتحليل . وكان يستند على بعض النظريات لشرح وتأكيد وجهة نظره الفلسفية ، فظهرت القضايا العملية فى فلسفته قضايا يقينية ، وإن كانت لا تقدم كل الحقيقة . فقضايا العلم من قبل القضايا الوصفية ، تصدق فى عالم الوصف ، ولا بد من الفلسفة وعالم التقدير لإكتمال الحقيقة . إستند على نظريات العلوم الطبيعية فى تفسير نشأة الذات ، وعلى نظريات العلوم الرياضية خاصة الهندسة فى تأكيد فكرة مجتمع التأويل . كان ينتقل من العلم ونظرياته إلى الفلسفة . فوضح قيمة المصادرات والمسلمات فى البحث العلمى ، وكيف يمكن الإستفاده من منهج العلم فى مجال الفلسفة وقضايا الإيمان (٢) . ومثلما كان للفروض العلمية قيمتها فى مجال الكشف العلمى ، كان للفروض

---

(١) د. حسن حنفى : قضايا معاصرة فى الفكرالغربى « الظاهريات وأزمه العلوم الاوربية » الجز الثانى ، دار الفكر العربى – القاهرة ص ٢٩٥

(٢) J. Royce : The Religious Aspect of Philosophy, pp.324-330 .

الفلسفية والدينية قيمتها فى مجال الحياة الدينية . ومثلما يتعامل الإنسان مع الفروض العلمية ، التى ليس لديه دليل على صدقها ، ويعتبرها فروضا صحيحة ، يجب أن يتعامل مع الفروض الدينية . كذلك لم يهمل « رويس » قيمة الحس العام أو الفهم الشائع ، فكان عند تناوله لمفهوم معين بالشرح والتأويل ، يناقش مفاهيم الفهم العام ، وكأن الفهم العام ، يعبر عن مخزون نفسى وإجتماعى وخلاصة لفكر الجماعة . والأقوال والحكم ما هى إلا فلسفة تحتاج للكشف عنها . حقيقة لم يجعل الفلسفة ، مجرد تحليل للحس المشترك أو لعبارات اللغة الشائعة ، ولكنه كان يستند على الأقوال والحكم السائدة ، ليثبت رأى فلسفى معين أو يؤكد مضمونه وقيمته العملية . ويتسق إهتمام « رويس » بالفهم العام ، وإعتباره من المصادر غير المعلنة لفلسفته ، مع إتجاه « رويس » العام ، لإعلاء الروح الإجتماعية وقيمة المجتمع . فالوعى الإجتماعى منبع وموجه الفلسفات ومصبها . وتتبع الفلسفات ومناهجها من الظروف الإجتماعية السائدة فى العصر ، وتمثل وتشبع فى النهاية مطلباً إجتماعيا .

obeikandl.com